



ختم الإمام البخاري - رحمة الله - كتابه العظيم الصحيح بحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**كَلِمَتَانِ حَفِيفَتَانِ عَلَى الْلِسَانِ، تَقْبِلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ**». وروى في ثنايا صحيحه حديثاً آخر عن أبي هريرة مرفوعاً: «**مَنْ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مَائَةً مَرَّةً حُطِّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَيْدِ الْبَحْرِ.**»

يا الله أي ذنب هذه التي تكثر وتتراءكم ثم تذهب في لحظة واحدة مثل زيد البحر؟!

اللهم لك الحمد لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.

جعلت من همي في تعرفي إلى الله تعالى السعي الدائم إلى استحضار قربه ومعيته وإحاطته وشهادته، والسعى في ذات الوقت إلى نفي جميع الصور المحددة والخيالات التي تخطر على بالي كلما ذكرته أو تذكرته، فهي صور بشرية بدائية ساذجة؛ تتنمي إلى عقلاني الواهن المحدود الذي صمم ليفهم تلك المعاني ويعقلها لا ليتصورها وكأنه يراها بمناظريه.

وحين قال - عليه الصلاة السلام -: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَانَكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، قصد - والله أعلم - استشعار القرب، وتحقيق معاني الأسماء الإلهية العظيمة الجميلة دون تخيل الصور التي ترد على المخيلة أو اعتمادها، ولذا قال العلماء: (كل ما خطر ببالك فالله ليس كذلك).

وهذا معنى (التسبيح)، أي: التنزيه والتقديس والاعتقاد بأحدية الله وتفرده عن عباده، لا يقاس إليهم ولا يماثلهم ولا يخطر على قلوبهم وصف كيفيته ولا تصورها {**لَيْسَ كَمُتَّلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**} (11: الشورى). ذكر التسبيح في القرآن الكريم سبعاً وثمانين مرةً بصيغ مختلفة.

سورة الإسراء تفتح بـ{سُبْحَانَ}، وهو مصدر يعني التنزيه المطلق التام لله عن كل صفات النقص والعيوب والخطأ والزلل والجهل، وإثبات أضداد ذلك من الكمال والجلال والجمال والعظمة والعلم والرحمة والحلم والفضل.

تبدأ بالتسبيح؛ لأنها تتحدث عن أمر خارج عن سنن الحياة العادلة وعن قدرات البشر، إنها تتحدث عن الإسراء من مكة المكرمة إلى بيت المقدس، ثم العروج إلى السماوات العليا، وهو أمر إلهي محض لا يدخل تحت قدرة البشر.

وتختم بالتهليل والتکبير والتحميد، فكأنها منزع الكلمات الأربع: « سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ »، فآخر السورة: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَخَذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ النَّذْلِ}، وهذا معنى "لا إله إلا الله"，{وَكَبِرُهُ تَكْبِيرًا} {الإسراء: 111}.

وحين ذكر النبي هذه الكلمات قال: « لَا يَضُرُّكَ بِأَيْمَنٍ بَأَيْمَنَ بَدَأَتْ »، مع أنه صلى الله عليه وسلم بدأ بـ{سُبْحَانَ اللَّهِ}.

في القرآن الكريم سور تفتح بـ{سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، فهي تتحدث عن تسبيح تم وكامل ومضى وانقضى.

وسور أخرى تفتح بصيغة: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}، فتتحدث عن تسبيح مضارع يحدث الآن ويستمر ويدوم.

وسورة تفتح بـ{سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} {الأعلى: 1}، وهو أمر يقتضي حدوث التسبيح في المستقبل.

فالتسبيح شامل للأزمنة الثلاثة: ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

الكون كله مندمج في تمجيد الله فكيف نشذ نحن عنه ونظل في غفلتنا؟! ثم نستغرب بعد ذلك أن يقتلنا القلق والخوف واليأس!

وحين نَزَّلتْ (فَسَبَّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) قالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- « اجْعَلُوهَا فِي رُكُوعِكُمْ ». فَلَمَّا نَزَّلتْ (سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) قالَ « اجْعَلُوهَا فِي سُجُودِكُمْ » (رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه).

ولذا تسمى الصلاة (سبحة) بضم السين؛ لكثرة ما يردد العابد فيها من التسبيح، ولو كان بألفاظ متغيرة؛ فالذكر نوعان:

١-نفي للنفائس والعيوب والخيالات البشرية عن رب العظيم المتربي.

٢- وإثبات للكمالات والفضائل والجمال والجلال والعظمة والكرياء والمجد.

في سورة الإخلاص مثلاً تسبيح وتنزيه وتقديس قوله: {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوَلِّْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ}، وهو نص عظيم يذكر المؤمن بتتنزيه الله عن مشابهة خلقه أو مماثلتهم، فلا تضرب له الأمثال، ولا يدركه الخيال، ولا يخطر ببال، وفيها إثبات وهو: {اللَّهُ أَحَدٌ}.

وفيها ما هو مركب منها وهو: {اللَّهُ الصَّمَدُ}، فهو يعني نفي مشابهة الخلق، ويعني إثبات الكمال في الصفات، ويعني أنه غني بذاته لا يحتاج إلى أحد، ولا يحتاج إلى شيء، والكل يحتاج إليه.

من شأن الإنسان إذا تحدث عن أحد أو وصفه أو ذكر شيئاً فإنه يتداعى إلى ذهنه تصور أو خيال، ناتج عن مقارنة هذا الشيء الذي يتحدث عنه بالأشياء التي يعرفها ويعرف الألفاظ الدالة عليها، وهذا طبع في العقل البشري لا يكاد ينفك عنه.

ولذلك وقع للبشر في تاريخهم من ألوان الشرك ما وقع، وغالب هذا الشرك ناتج عن تشبيه الخالق بالمخلوق أو تمثيله أو تصويره أو قياسه عليه أو إعطاء الربوبية لشيء من المخلوقات المادية، ولذلك كثر في القرآن الكريم الحديث عن تنزيه الله وتقديسه، فالله تعالى لا يُقاس بخلقه ولا يُقاس به خلقه، والتسبيح الدائم هو نفي للتصورات والتهيئات والتخيلات والخطوات التي تخطر في باليها حينما تتحدث عن الله أو نقرأ عنه.

ولذلك قال في سورة الصافات: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادُ اللَّهِ الْمُخَلَّصِينَ} {الصافات: 159، 160}، وفي آخر السورة:

{سُبْحَانَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {الصافات: 179-181}.

ينزه ويسبح عن أوصاف البشر الذين وصفوه تعالى بما لا يعلمون وما لم يوقد لهم عليه خبر من السماء على لسان أحد الأنبياء، فكل وصف لله تعالى على غير ما جاء في الوحي فهو تَقُولُ وافتئاتٌ ورجمٌ بالغيب، ولذلك قال: {إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}، يعني من الأنبياء وأتباع الأنبياء؛ الذين آمنوا بالله ورسله ووحيه وصدقوا المرسلين وقالوا عن ربهم ما قاله أنبياؤهم ورسلهم دون تجاوزٍ أو اعتداء.

ومن المعنى: تنزيه الله وتسبيحه بما تصفه خواطر البشر، وعقولهم الكليلة، وأذهانهم العليلة، وعجزهم الظاهر، وخيالهم البسيط الساذج.

له الأسماء الحسنة؛ التي تفرد بمعانيها وحقائقها وكمالاتها، لا تفاس بما عليه الخلق، ولا يجوز أن يرسم الإنسان لها صورة معينة في ذهنه، كل الصور منافية، وحقيقة الصفات والأسماء غير مدركة للبشر، ولكنهم يملكون الإيمان بها، ويملكون تصور أنفسهم وضعفهم وافتقارهم و حاجتهم الذاتية إليه سبحانه، فيقع لهم الخشوع والخضوع والذل والانكسار بين يديه.

هذا التسبيح الذي ينحو به العبد من الأزمات والمضايق والمحن، ويخلص من الهموم والغموم والأحزان؛ كما نجي بونس من بطن الحوت: {فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَّبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمٍ يُبَعَّثُونَ} (الصافات: 143، 144).

هموم الفرد في رزقه، ومعاشه، وعلاجه، وزوجه، وولده، ووظيفته، ومستقبله، وهموم الشعب والأمة في السعي للتفوق، والتنمية، والنہوض، والنجاح، ومواجهة تحديات الحياة.

إن قمة الإيمان والتوحيد هي قمة الإثبات والتجريد، فالإثبات يعني الإيمان بالإله الخالق الرازق العظيم؛ الذي يُغيّر ولا يتغيّر ولا يعجزه شيء.

والتجريد يعني السمو والتَّرَقِّي عن تشبيه هذه الصفات والأسماء بما عهدهما وألفناه في كوننا وحياتنا ووفق بيئاتنا وما حولنا. العقل البشري مصمم خصيصاً للتتعامل مع الكون، وحين يعمل في حقله يصنع الإبداع والإنجاز، ويأتي بما يبهر وينهل من الابتكار والكشف، وبهذا عظمت حضارة الإنسان وتراكم خيرها ونفعها وتيسيرها للحياة.

وهو عاجزٌ عجزاً حقيقياً تكوينياً عن أن يعمل في نطاق الغيب، بما هو أكثر من الإثبات، فهو عاجز عن تصور يوم القيمة على حقيقته، وتصور الصراط، والميزان، والجنة والنار، وتفاصيل ذلك اليوم الطويل العصيب، وإنما يؤمن العبد المؤمن بما جاء في القرآن والسنة ويفوض كيفية ذلك إلى الله، وهو القائل: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرْءَانٌ} (السجدة: 17)، وفي الجنة: «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذْنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ»، وليس في الجنة مما في دنياكم إلا الأسماء).

إن كثيراً من الشبهات التي تغشى شباب اليوم، وتدور في مخيلاتهم، وتجري على ألسنتهم؛ ناتج عن تشبيههم وتمثيلهم وتصويرهم أمور الغيب على أمور الشهادة، وقياسهم ما غاب على ما حضر، وظنهم أن في مقدور عقولهم ومخيلاتهم تصور أمور الغيب والآخرة وفق ما عهدوا وألفوا، فيترتب عن ذلك الإحساس بالتناقض والاختلاف، أو عدم الاستيعاب أو عدم الفهم، ولو أنهم أدركوا أن لذلك الغيب قدسيته وقوانينه، ونواتجه وستنه، ومعانيه وألفاظه.. التي لا يدركونها إلا إذا رأوها؛ سَلَمَ لِهِمْ يَقِينُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ مِنَ الشَّبَهَاتِ الْمَرْدِيَّةِ.

أسمى درجات الإيمان أن تُسَلِّمَ وتصدق بخبر الله وخبر الوحي المتواتر القطعي الثابت، وفي الوقت ذاته تجرد هذه الأخبار من التخيّلات والكيفيات المعهودة في العقل والحياة.

أصابني أرق عارض بسبب ضيق عابر فقال لي صديق: إذا أويت إلى فراشك فاندمج في تسبيح دائم ولا تنشغل بعده، قل: سبحان الله سبحان الله.. حتى تتعب.. حتى تتعس.. حتى تنام!

قلت له: أَوْلَئِسَ الْقُرْآنُ أَفْضَلُ وَأَوْلَى؟

قال: بلـ، ولكن القرآن يحتاج إلى استحضار وتركيز، بينما التسبيح كلمة واحدة ترددتها عشرـاً ومائـةً وألـفاً وما شاء الله حتى

تغلبك عينك، ولو خطر لك سرحان أو شرود.

وتذكّرت حديث المؤمنة الصديقة فاطمة بنت محمد حين احتاجت خادمة فقال - صلى الله عليه وسلم - لها ولبعضها الإمام علي رضي الله عنه: « أَلَا أَدُلُّكُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ ، إِنَّا أَوْيَتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا ، أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا ، فَكَبِرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ » (كما في البخاري ومسلم). يا من تعانون المشقات في أعمالكم وصحوكم! يا من يشتكون الأرق عند نومكم! يا من تعايشون القلق في يقينكم! يا من تندمرون من هجوم الناس عليكم وتعرضهم لكم بغير حق: هذا الورد العذب للزلال، هذا المنقذ من الضلال.

المصادر: